دروس عبر الخط: التاريخ: 2021/01/21

المقياس: التحليل النفسي للأدب. **الأستاذ:** فريد زغلامي.

الجمهور المستهدف: السنة الثالثة ليسانس تخصص: نقد ومناهج

المحاضرة السادسة: التحليل النفسي للفن.

لعل من أقدم المحاولات الرامية إلى ربط الفن عموما والأدب خصوصا بالمنحى النفسي– ودون مغالاة – تلك المحاولات المبثوثة في التراث الفلسفي والنقدي منذ العصر اليوناني، حيث يمكن أن " نجد في نظريات أفلاطون عن أثر الشعراء على منظومات القيم والحياة في مدينته الفاضلة. بداية لهذا الالتفات العميق للجانب النفسي في بحث فلسفة الأدب، ووظائفه، كما يمكن أن نلاحظ أن نظرية التطهير ذاتها عند أرسطو إنما تربط الإبداع الأدبي بوظائفه النفسية" ، ولا يعدم المرء وجود ملامح للتفكير النفسي في الحضارة العربية الإسلامية، كتلك الإشارات حول الدوافع النفسية للإبداع مثل الطمع والعشق...، أو مدى تأثير الشعر على نفس الملتقى مثل حديثهم عن أسباب ربط الشعراء للمقدمة بالنسيب؛ و ذلك لاستمالة القلوب إليهم كما يحدثنا ببعض ذلك ابن قتيبة وابن رشيق القيرواني وغيرهم.

كانت الإرهاصات أو البدايات المبكرة للتحليل النفسي للأدب في العصر الحديث قد أخذت تلوح في كتابات الناقد الفرنسي سانت بيف (ت 1869)، الذي عدّ من بين الأصوات الأولى المنادية باصطناع علم النفس للمؤلفين من خلال دعوته إلى التركيز على" شخصية الأديب تركيزا مطلقا، إيمانا منه بأنه كما "تكون الشجرة يكون ثمارها"، و أن النص تعبير عن مزاج فردي؛ لذلك كان ولوعا بالتقصي لحياة الكاتب الشخصية و العائلية... "، و يعد هذا النقد السِّيرِي من بين أهم الإجراءات التي يعتمد عليها المحللون النفسانيون؛ وذلك عن طريق استثمار كل عناصر السيرة الذاتية التي تتيح " للمعالج أو الطبيب أن يُلِمَّ بأكبر المعلومات التي تظاهره على معرفة خفايا المريض المعالج"، غير أن الأكيد في كل هذا أن الاتجاه النفسي

في دراسة الظواهر الإبداعية لم يتبلور بشكل علمي منظم وممنهج إلا مع أوائل القرن العشرين بعد ظهور مدرسة التحليل النفسي على يد الطبيب "سيغموند فرويد".

يعد "فرويد" أول من صك مصطلح التحليل النفسي، ليشير به إلى أحد مناهج علم النفس العيادي، يهدف إلى الكشف – باستخدام طرائق مختلفة– عن " هواجس النفس وعللها الباطنة، عبر إثارة الذكريات، والرغبات الجسمية والصور المتواشجة تحت أنظمة من الأفكار اللاوعية..."، التي تظهر آثارها في سلوك الشخص المصاب، وغاية هذا التحليل إيجاد علاج ما يخفف وطأة الأمراض النفسية التي تصيب الإنسان؛ وذلك بالغوص في أعماقها، ومعرفة حقيقتها. وقد كان فرويد يزعم للناس أن هذه الحقيقة ما هي إلا " دوافع وغرائز تؤثر على أفعال الإنسان، وأقوى هذه الدوافع غريزة الجنس التي أطلق عليها الليبيدو"، وحاول فرويد في دراساته النفسية تلمس آثارها في الطفولة المبكرة عند المصاب، وتأسس انطلاقا من هذه الأبحاث النفسانية إجراء نقدي ينصرف إلى دراسة الظواهر الإبداعية والفنية اعتمادا على الحقائق العلمية التي توصل إليها علم النفس الكلينيكي.

وفي ضوء هذه الرؤية دَلف فرويد إلى عالم الفن والفنانين، وطبق آراءه في التحليل النفسي على شخصيات فنية عالمية، و ذلك من خلال ثلاث دراسات:

1- ليوناردو دافنشي – دراسة نفسية جنسية لذكريات الطفولة– كشف فيها عن الشذوذ الجنسي المثلي أو البدائي عند ليوناردو دافنشي.

2 – مقالة عن دوستيوفسكي وجريمة قتل الأب من خلال روايته "الإخوة كرامازوف": حَسر فيها عن الصدع الهستيري الذي كان يصيب دوستوفسكي، ورغبته الأوديبية في موت أبيه، وشذوذه الجنسي الدفين.

3- دراسة لقصة ألمانية مغمورة عنوانها "غراديفا" ومؤلفها فلهلم ينسن.

إلا أن فرويد لم يقف عند حدود تحليل شخصية الفنان وعمله، و بيان الصلة بينهما، بل لقد اهتم أيضا بتحليل شخصيات وأبطال الأعمال الروائية والمسرحية كشخصية "هملت" وبطلة قصة "غراديفا".

لذا قسّم الدارسون مستويات التحليل النفسي للفن عند "فرويد " إلى ثلاثة مستويات:

1- الاهتمام بالشخصية المبدعة.

2-الاهتمام بالأثر الإبداعي في ذاته؛ حيث انطلق فرويد في تحليله للشخصية الروائية في قصة "غراديفا" من بنية العمل الروائي نفسه.

3-الاهتمام بالقارئ؛ لأنه شخص متواطئ مع الكاتب يستسيغ اللعبة الخيالية التي تستهدف اللذة في العمل الأدبي، وتشبع لدية الرغبات اللاشعورية مستخدمة اللذة كمكافأة مغرية نابعة من الإدراك الحسي للجمال الشكلي.

إن الفنان عند فرويد يمارس إبداعه نتيجة ضغط عقدة أوديب، فالغريزة الجنسية هي الباعث الأول على الفن عنده، من هنا افترض فرويد من خلا تحليلاته النفسية أن الفنان أو المبدع إنسان عصابي؛ أي مريض نفسيا إلا أن مرضه يختلف ويتميز بقدرته على تجنب عواقب ذلك العصاب، حتى يتجنب الجنون وتدمير الذات، فيلجأ إلى الفن والإبداع.

إن الفنان المبدع عند فرويد هو إنسان محبط في الواقع؛ لأنه يريد الثروة والقوة والشرف وحب النساء، لكن تنقصه الوسائل للوصول إلى هذه الإشباعات، ومن ثم فهو يلجأ للتسامي بهذه الرغبات وتحقيقها خياليا. فالفن لدى فرويد هو منطقة وسطية بين عالم الواقع الذي يحبط الرغبات، وعالم الخيال الذي يحققها.

إذا كان فرويد قد رأى بأن الفن والإبداع تعويض عن كبت جنسي يعاني منه المبدع، وضربا من ضروب التنفيس في لحظات غياب الأنا الأعلى، فإن تلميذه ألفرد أدلر (ت1937م) كان يرى بأن مركب النقص أو القصور هو الذي يصبح " قوة وَهَّاجَةً لتحريك مشاعر الفنان،

وعاملا فعالا لنشاطه الإبداعي الناتج عن مبدأ قانون التعويض النفسي"، فمركب النقص يدفع الفنان إلى " إرادة التفوق في محاولة إثبات الذات وتأكيد الوجود"؛ لذلك رأى أدلر أن عقدة الجنس بكل مظاهرها لا تفلح في تفسير الإبداع، بقدر ما يبدو النقص عند المبدع ومحاولة تعويضه بالفن، مقترحا إعادة تفسير سلوك ليوناردو دافنشي (ت1519م) انطلاقا من "واقع عدم إشباعه عاطفة الأمومة ورغبة هذا الفنان في التعويض عن إحساسه المفقود كونه ابنا غير شرعي أولا و لتعويض حرمانه من حنان أمه التي تزوجت برجل ثانيا".

أما كارل غوستاف يونغ فيرى أن الفنان يعيد " تفصيل الأساطير المستمدة من التجارب الشعائرية عند الإنسان البدائي، أحيانا عن وعي، وأحيانا من خلال عملية حلمية"، فالفنان يدرك أمرا في اللاشعور الجمعي بغير إرادة منه، إدراكا فطريا وجدانيا مستمرا؛ مما يترتب على ذلك ضغطا قويا يؤثر على حياته النفسية، ومع ذلك فإن يونغ يرفض وصف فرويد للفنان بأنه مريض أعصاب؛ إذ المبدع عنده أهم بكثير من المريض في أعصابه، من هنا جنحت التفسيرات النفسية للفن عند يونغ إلى تقصي مظاهر النماذج العليا البدائية في الأدب والفن تلك التي يعكسها الأدباء والفنانون في أعمالهم، مع محاولة هذه الدراسات فهم تلك النماذج وتفسيرها.

وأخيرا تبقى دراسة العملية الإبداعية وسيكولوجية الفنان أو المبدع وسماته ودوافع إبداعه ومرضه أو صحته دراسة معقدة كظاهرة إنسانية وجدت منذ وجد الإنسان، وستظل ترافقه ولا تفنى مادامت الحياة، وسيظل الفن والإبداع ذا طبيعة خلافية مفتوحا كعملية للدراسة والبحث، فهو من حيث المكانة يمثّل أعمق وأوسع وأعقد نوع من أنواع التفكير البشري.

مراجع المحاضرة:

1) عبد القادر فيدوح: الاتجاه النفسي في نقد الشعر العربي، دار صفاء، عمان، الأردن، ط1، 2010.
2) صالح هويدي: النقد الأدبي الحديث – قضاياه و منهجه –، منشورات جامعة السابع أبريل، ليبيا، دط، 2005.
3) زين الدين المختاري: المدخل إلى نظرية النقد النفسي، سيكولوجية الصورة الشعرية في نقد العقاد (نموذجا)، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، 1998.
4) ستانلي هايمن: النقد الأدبي و مدارسه الحديثة، تر (إحسان عباس و محمد يوسف نجم)، دار الثقافة، بيروت، لبنان، د ط، 1960، ج 1.
5) أحمد كمال زكي: النقد الأدبي الحديث – أصوله و اتجاهاته–، الشركة المصرية العلمية للنشر، لونجان، مصر، ومكتبة لبنان ناشرون، بيروت، ط1، 1997.